

المجتمع المسلم الواعي



﴿وَمَثَلُ الْهَرَمِيِّ الَّذِي كَفَرَ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ (الفتح/ 29)، يذكر القرآن تعالى في هذه الآية الكريمة مثلاً للمسلمين الذين يتبعون التعاليم النبوية الشريفة.

يقول القرآن الكريم: أن مثل هؤلاء في الإنجيل كالزراع الذي يخرج ورقه ببدء ذي بدء وهو لا شك رقيق (أخرج شطأه)، لكن لا يبقى هذا الورق على حاله، إذ كلما انتشر في الأرض وأصبح له سويق، قوي وكانت له صفة أخرى أي: يقوي الورقة الأولى التي بدأت في الظهور (فآزره)، بعد ذلك يقوى أكثر ويكون سمياً (فاستغلظ) ثم ينتصب قائماً على سوقه (فاستوى على سوقه) وحينما ينظر إليه الزارع والاختصاصيون يغمروهم العجب وينبهرون. وهذه هي نفسها حالة النمو والاستقلال والسمو التي تغضب الأعداء وتكون شوكة في عيونهم، وحينما ينظر الكفار إلى تلك الفئة المؤمنة فإنهم يزدادون غيظاً. ما هو هذا المثل المذكور؟ يجيبنا القرآن نفسه أن أصحاب النبي هم (أشداء على الكفار رُحماً على بيوتهم تراهم رُكعاً سجداً) (الفتح/ 29).

التفتوا لهذا الموضوع وهو: أن العبادة لا تنفصل عن صميم الإسلام، فبعض الأشخاص ممن اطّلع على تعاليم الإسلام الاجتماعية قد سبّب لهم هذا الاطلاع أن ينظروا إلى العبادة نظرة ازدراء وامتهان، ولكن هؤلاء على خطأ لأن العبادة جزء لا يتجزأ من الإسلام على الصعيد النظري والعملي في آن واحد، فلا العبادة لها قيمة دون التعاليم الاجتماعية الإسلامية، ولا التعاليم لها قيمة دون العبادة. فلا بد من اجتماع الأمرين معاً.

(يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) (الفتح/ 29)، أي: أنهم يريدون من العبادة، ولا يقنعون بما عندهم علماً أن ما يريدونه ليس من الأشياء التي يطلبها الماديون الذين يلهثون وراء المال والماديات فقط. أي: يطلبون رضا الله في طريق الحق والحقيقة (سيمآهم في وجوههم من أثر السجود) (الفتح/ 29)، فالإسلام ظاهر على ملامح وجوههم، وأثار العبادة بارزة على محياهم، وليس المقصود من هذا كثرة السجود الذي يؤدي إلى ظهور ثغفات في جباههم. بل المقصود هو أن خصوصية العبادة تترك أثراً على سيماء الإنسان وهناك علاقة عظيمة بين روح الإنسان وجسده. وأفكار الإنسان وأخلاقه، وعقيدته، وملكاته تترك أثرها على محياه، فمحيا الإنسان المصلي ليس كمحيا تارك الصلاة.

ما أعظمه من مثل ضربه □ للمسلمين الأوائل! أنزه مثل الوعي والتكامل.. إنزه مثل المؤمنين الذين يرتفون سلام الرقي والتطور والمثل هو تشبيهم بالزرع الذي تفتح أوراقه، ثم يكون له سويق سميك ذو أوراق كثيرة، ويكون شجيراً لا كسائر الشجيرات... إنزه الزرع الذي يبهر الزراع أنفسهم بل ويبهر كل الذين لهم باع في التربية الإنسانية، إذ حينما ينظرون إليه يملأ العجب كل وجوههم من نموهم بهذه السرعة، وجودته بهذه الدرجة، ويملاً العجب كيان سقراط وأمثاله، أجل فإن من الأمور المحيرة للبشرية على الصعيد العالمي تلك الفائقة لنمو المسلمين واستقلالهم والذي يعبر عنه القرآن الكريم بالآية: (فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ) (الفتح/ 29)، أي يقف وحده على أقدامه.

قال أحد الأوروبيين: أننا لو أخذنا بنظر الاعتبار ثلاثة أشياء فإننا سنعترف عندها أن لا وجود لشخص في العالم كمحمد (ص) ولا قيادة فيه كقيادته. وهذه الأشياء هي:

أولاً: عظمة الهدف وأهميته، نعم، لقد كان الهدف عظيماً ومهماً للغاية إذاً حدث انقلاباً في الناس ومعنوياتهم وأخلاقهم وآرائهم وتقاليدهم الاجتماعية.

ثانياً: ضالة حجم الإمكانات والوسائل آنذاك. ماذا كان عنده من أدوات ووسائل؟ لقد كانت معه عشيرته الأقربون، فلم يكن لديه مال ولا قوة ولا مساند ولا ناصر إنها أعجوبة حقاً أن يتمكن شخص واحد من كسب الناس، وجعلهم يؤمنون به، ويلتفون حوله، حتى أصبح أكبر قوة في العالم.

ثالثاً: سرعة الوصول إلى الهدف إذ أصبح أكثر من نصف الناس في العالم مسلمين خلال أقل من نصف قرن. عند ذلك يثبت ما ذكرناه من أنزه لا وجود لقيادة في العالم كقيادته (ص)، وهذا هو قصد القرآن من قوله: (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) (الفتح/ 29)، إذ أن الأخصائين والخبراء في التربية الإنسانية ينبهون إلى الأبد بسرعة ظهور المسلمين ونموهم واستقلالهم ونتائجهم.. وهذا المثل قد ذكر في القرآن المجيد للأمة الإسلامية.

أود أن أطرح هنا سؤالاً: هل أن هذه المواصفات التي ذكرها القرآن الكريم تخص المسلمين الأوائل؟ وهل أنزه من خصوصياتهم بالذات أو خصوصيات الإسلام، وعملوا بأحكامه فإنهم س يحملون ذات المواصفات المذكورة من نمو وتكاثر وكمال واستقلال ونيل إعجاب الآخرين وانبهارهم، فالخصائص إذن هي خصائص الإسلام وليست خصائص الناس، وهي نابعة من الإيمان بالإسلام واتباع تعاليمه. وما جاء الإسلام ليعطل طاقات المجتمع ويقف حائلاً دون تفتيحها، أو يرغم المسلمين ليعيشوا في دوامة من المراوحة الرتيبة.. كلا، إنزه دين التنمية والتحرك والنشاط، وحيث برهن من الناحية العملية أنزه قادر على الأخذ بيد المجتمع إلى الأمام حيث الرقي والتقدم.. ولاحظوا ماذا أحدث الإسلام من قدرة، وماذا قدم من عطاء في القرون الأربعة الأولى من حياته. يقول ويل ديوارنت في "تاريخ الحضارة": "لا يوجد حضارة تبعث على الانبهار كالحضارة الإسلامية" إذن الإسلام كشف عن خصوصياته على الصعيد العملي، ولو كان الإسلام من دعاة الجمود والانكماش والرتابة لظل يراوح في مكانه بين العرب! فلماذا استوعب الحضارات الواسعة وأنشأ من مجموعها حضارة أعظم. فالإسلام لا يعارض تطور الزمن.

إن من الإنصاف القول أن لـ"غوستاف لوبون" دراسات كثيرة، وكتابه كتاب قيم للغاية. ولكنه يتكلم أحياناً بطريقة تبعث على العجب، ولا غرو فهذا هو دين الغربيين وأسلوبهم. إنزه عندما يصل به المقام إلى الحديث عن أسباب انحطاط المسلمين، يذكر أن تعارض الإسلام مع حاجات العصر كان أحد الأسباب. فيقول: إن الزمن في تطور لكن المسلمين يريدون أن يبقى الإسلام في كل عصر على حالته التي كان عليها في عصره الأول، وهذا أمر لا يمكن تحقيقه. وكذلك فهم بدل أن يتركوا الإسلام جانباً، ويسايروا تطورات العصر، نراهم بقوا على تمسكهم بالإسلام فانحطوا وتخلفوا.

وكل شخص يرغب أن يتعرف على المثال الذي يذكره هذا المستشرق الكبير لدعم مزاعمه! فأبي مبدأ من مبادئ الإسلام تمسك به المسلمون فتخلفوا ولم يواكبوا التطورات الحاصلة في كل عصر! وأي مبدأ في الإسلام وجده غوستاف لوبون لا يلائم حاجات العصر ومستلزماته! وأي شيء لمس من المسلمين حتى قال: أنزه كشفوا عن جمودهم وتحجرهم من خلال عدم مسايرتهم لتطورات العصر، يقول: أن من المبادئ الإسلامية الرائعة مبدأ المساواة الذي أتى أكله في عصر صدر الإسلام، ومهد السبيل أمام الشعوب الأخرى لتدخل في دين □ أفواجاً ولا سيما من غير العرب الذين اكتووا بنار ظلم حكاهم وأخبارهم، وهؤلاء عندما اطلعوا على ذلك المبدأ العظيم انفتحوا على الإسلام واعتنقوه لأنهم لم يجدوا فيه تمييزاً عنصرياً أو خدمة المجتمع الإسلامي، وظل المسلمون الذين جاؤوا فيما بعد على إصرارهم وتعنتهم في الاستمرار بتطبيق هذا المبدأ في العصور اللاحقة في الوقت الذي لو كانوا قد نبذوه جانباً لظلت زمام الأمور بأيديهم وكانت لهم السيادة والحاكمية. وعندما تسلم العرب مقاليد الأمور، ودخلت الشعوب الأخرى في الإسلام، كان عليهم أن يفضلوا السياسة على الدين، ويقدموها عليه، لأن السياسة تقتضي ترك مثل هذه المفاهيم والمبادئ، واستغلال الشعوب الأخرى، وجرها لتكون تحت نيرها وسلطتها حتى تستطيع توطيد أركان

حكومتها.. هذه هي السياسة أما هؤلاء فكانوا لا يفهمون إذ تشبثوا بمبدأ المساواة ولم يفرقوا بين العرب وغيرهم وفتحوا الطريق أمام الأعاجم وكسبواهم إلى صفوفهم، وعيّنوهم قضاة من الدرجة الأولى بعدما هياؤا لهم الفرصة للتزود من التعاليم الإسلامية.. وجاء هؤلاء بالتدرج وأصبحوا في موضع قوة وقدرة فسحبوا البساط من تحت أرجلهم أي أرجل العرب.

قد وقع غوستاف لوبون في خطأ في رأيه بأنّ الإسلام أوّلاً ليس نهجاً سياسياً بالمفهوم الأوروبي ثانياً: ولأنّ المسلمين لو اتخذوا من الإسلام العوبة للسياسة لما كان له أي أثر اليوم، ولما كان المسلمون أمة بهذا الشكل.

إنّ هدف الإسلام هو إقرار المساواة بين الناس بشكل تام. ولو شرّع الإسلام مبدأً نفعياً على النحو المؤقت، أي: مثلاً، لكسب بعض الناس والاستفادة منهم، ثمّ بعد ذلك نقضه لما كان إسلاماً حقيقياً بمعنى الكلمة أنّ هذه هي السياسة الأوروبية التي تصدر وثيقة حقوق الإنسان لتنضوي بفيه الشعوب تحت سلطنتها وهيمنتها كما حدث ذلك، وإذا ما انضوت فإنها تقول لها: كلّ هذا الكلام هراء.

هذا هو أسلوب التفكير السائد عند هؤلاء. إنهم يقولون: إنّ الإسلام فظ غير مرن ولا ينجس مع متغيرات العصر، وبعبارة أخرى مع السياسة.

الإسلام جاء لمحاربة أمثال هذه السياسة المنحرفة في العالم، أنّّه لا يعتقد بمتطلبات العصر التي يريدها هؤلاء إنّّه يعتبرها انحرافات العصر لا متطلباته، ويعلن محاربتة لها ووقوفه ضدها.

إنّ ما ذكره غوستاف لوبون هو نفس المؤاخذة التي تشدق بها البعض ضد سياسة أمير المؤمنين (ع) فقالوا عنه: أنّ كلّ شيء فيه حسن، فهو رجل علم وعمل وتقوى وعاطفة وإنسانية وحكمة وخطابة لكن عيبه الوحيد والكبير أنّّه لم يكن سياسياً! لماذا لم يكن سياسياً؟ لأنّه - على حد زعمهم - لم يكن مرناً أي: كانت تعوزه المرونة، وكان متشدداً للغاية حيث لم يهتم ولم يفكر بالمصالح السياسية للدولة، إنّ الشخص السياسي - برأي هؤلاء - ينبغي أن يكذب ويزور الحقائق، ويعد ولا يفى بوعوده، ويوقع على ميثاق أو حلف ثمّ ينقض توقيعه بل ينكره، ويظهر البشاشة والطلاقة بوجه شخص ما حتى إذا استسلم له قتله..

وكما فإنّ الإسلام جاء ليكافح هذا اللون من السياسة، ويعمل كل ما في وسعه لخدمة الإنسانية وإسعادها، وهو - بلا شك - الحارس الأمين لها، ولو كان قد أُبدي شيئاً من المرونة والتنازل فلا يعدو أن يكون إسلاماً، بل حيلة ومكراً.. إنّ الإسلام هو الحافظ الأمين، وهو الحقيقة ذاتها، والعدالة نفسها، وأساساً فإنّ فلسفته في مثل تلك المواقف المذكورة ينبغي أن تكون قوية متصلبة.

إنّ سياسة عليّ (ع) هي التي جعلت منه حاكماً على قلوب الناس قروناً عديدة. فقد دافع عن أفكاره في عصره، وطلت أفكاره بمثابة مبادئ ثابتة ودروس ذات مغزى في العالم، لهذا فإنّ منهجه صار عقيدة وإيماناً بين الناس، فلم يخسر في سياسته إذاً، ولو كانت سياسته وهدفه أن يتنعم فلائيل (كما كان معاوية يصرّح بأنّه غرق في نعم الدنيا ومباهجها) لقلنا أنّّه خسر، لكن بما أنّّه كان رجل إيمان وعقيدة وهدف فلم يخسر أبداً. إذاً من التوقعات الخاطئة التي ينتظرها هؤلاء فيما يخصّ الانسجام مع حاجات العصر هي أن يتلون السياسيون بلون كلّ عصر، ويتصفوا بالدهاء والمكر والخديعة كالثعلب الماكر مطلقين على ذلك اسم المرونة والذكاء والانسجام مع الزمان. ويتوقعون من الإسلام أن يكون كذلك وأن يسمح لمعتنقيه بأن يكيفوا أنفسهم مع الزمن مدّعين أن نقص الإسلام يكمن في عدم مرونته وانفتاحه على التطورات الحاصلة في كلّ عصر. إنّ من دواعي فخر الإسلام أنّّه وقف بكلّ صلابة أمام هذه المداهنة: إنّ عظمة الحسين (ع) هذا الإمام الذي أخذ بمجامع القلوب، وخلصته الدهور تكمن في أنّّه لم يكن مثلوناً بلون الزمان، ولم يقل أبداً: أنّ النبي إذا حكم فنحن منه وإذا حكم معاوية، فنحن معه. عندما قال له مروان بن الحكم يا أبا عبدالمطلب: إنني أنصحك أن تباع يزيد. لم يقل (ع): إنّ هذه ليست مصلحتي بل التفت إلى الإسلام قائلاً: وعلى الإسلام السلام إذ قد بلت الأمة براع مثل يزيد. ▶